الأفريقانيَّة، أو الجناح الآخر للعروبة

سامر منصور

من دواعي أحوال التردِّي الفكريّ في المنطقة العربيَّة أنَّ المبادرة الأفريقانيَّة التي أَطْلقها العقيد معمّر القذافي لم تحظَ بالاهتمام الذي تَسْتحقّه في بلاد العرب. وكأنَّ توحيدَ القارة السمراء من أجل توفير الشروط الضروريَّة لاستقلالها ولوقفِ النزيف يجري على كوكبٍ مختلفٍ عن «هذه القرية الصغيرة التي تسمَّى الكرَّة الأرضيَّة.» كما أَعْرب بعضُ المثقفين العرب عن ابتهاجهم بنشأة الاتِّحاد الأوروبيّ وإرساء مؤسَّسات العولمة الماليَّة والتجاريَّة. فالأمور التي يبحثها الأفارقةُ، مثل مشروع «الولايات المتحدة الأفريقيَّة» و«العملة الأفريقيَّة» من أجل الدخول إلى قلب العالم، هي أمور يَعْتقد معظم المثقفين العرب أنَّها شكليَّة يحقّ لهم أن يكابروا عليها ويتجاوزوها إلى أمور «أكثر أهميَّة،» هناك «حيث تجري صناعةُ التاريخ» لا في بلادهم بالطبع.

أخشى ما أخشاه أن تكون هذه المكابرةُ النرجسيَّةُ غطاءً شفّافًا يُخفي ما يَعْتمل في اللاشعور العميق الناتج عن الفتح العربيّ ـ الإسلاميّ لأدغال أفريقيا في القرون الأولى، أو أن تكون نتاجًا لانسياق مثقفينا على غرار حكّامهم وسياسيِّيهم وراء «ثروة» المال السائل و«الاستثمار» من الديون التي تمنّ بها علينا المؤسَّساتُ الماليَّةُ والتجاريَّةُ المعولمة. وأغلبُ الظنّ أنَّ مكابرة بهذا الوضوح هي نتاج للاثنين معًا؛ فأحدُهما لا يتنافى مع الآخر.

وحقيقة الأمر أنَّه على الرُّغم من المأساة الطويلة التي تعيشها أفريقيا أو بسببها، فإنَّ الحكّام والسياسيِّين الأفارقة قد سَبَقُوا حكّامَنا وسياسيِّينا ونضجوا قَبْل نضوجنا وتعلَّموا من تجاربهم المريرة لأنَّهم على الظنّ «انفتحوا» قَبْل حكّامنا وراهنوا طويلاً على ما يراهن عليه حكّامُنا اليومَ من هذا «الانفتاح.» وهم إذ اصطدموا بالحائط المسدود وطبيعة مجريات الأمور في موازين القوى العالميَّة، أَدْركوا أنَّ الدخول إلى العالم «حيث تجري صناعةُ التاريخ» يَقْتضي الحصولَ على تأشيرة دخول بأن يكونوا أفارقةً بأفضل ما يُمْكن من الوضوح وأقوى ما يُمْكن من الاتِّحاد السياسيّ وبأشدّ ما يُمْكن من الإرادة السياسيَّة والاقتصاديَّة، وأنَّه في سبيل كل ذلك ليس أمامهم غيرُ العمل المشترك بين الدول الأفريقيَّة وتطويرِ المؤسَّسات الأفريقيَّة.

لكنَّ هذه الواقعيَّة السياسيَّة التي خضَّبتها التجربةُ السياسيَّةُ المريرة ارتكزتْ قبلاً على حدودٍ دنيا من الإحساس بالذات والهويّة، وهي إذا ما قورنتْ بواقع الحال السياسيَّة العربيَّة تبدو فعلاً في كوكب آخر. إذ على الرُّغم من الأعباء والأثقال التاريخيَّة التي تَحْملها القارةُ السمراءُ على ظهرها لم تساومْ على نظام التمييز العنصريّ والاستعمارِ الاستيطانيّ، بل استطاعت أن تَقْضي على هذا النظام بأرقى شكلٍ عرفتْه الإنسانيَّةُ، في حين أنَّ الحكّام العرب مازالوا يراهنون على المساومة مع النظام الاستعماريّ الصهيونيّ. وفي الأمس القريب عندما حاصرت «دولُ الأسياد» بلدًا عربيّاً أفريقيّاً خرقت القارةُ السمراءُ هذا الحصارَ وفكَّكتْه وأرستْ تجربةً راقيةً في التعامل مع القوانين الدوليَّة لم تنته فصولُها الأخيرة بعد، في حين أنَّ السياسيِّين العرب لا يَعْرفون كيف يبرِّرون انصياعَهم لخرق الأعراف والقوانين الدوليَّة تجاه ليبيا بالأمس وتجاه العراق اليوم وتجاه بلدانٍ أخرى بين الأمس واليوم. وفي هذا السياق سيَذْكر التاريخ أنَّ أوّل مَسْحة إنسانيَّة على نظام العولمة الليبراليَّة قامت بها الدولُ الأفريقيَّةُ حين خرقتْ ما يسمَّى «حقوقَ الملكيَّة الفكريَّة،» وأقرَّتْ تصنيعَ أدويةِ الفقراء وحقَّهم بالطبابة ضدّ مرض نقص المناعة (الإيدز). وها هم السياسيُّون الأفارقة من مراكش إلى سياتيل يَحْملون ملفَّاتهم في وجه منظمة التجارة العالميَّة، يقارعون الحُجَّةَ بالحُجَّة، والاقتراحَ بالاقتراح، لحماية الحدّ الأدنى من حقوق الناس... في حين أنَّ كل الحكّام والسياسيّين العرب يتهرَّبون من التنسيق فيما بينهم أثناء المفاوضات، ومازال كلٌّ منهم يراهن على اقتطاع «الحصّة الكبرى» من استثمار الديون على حساب الآخرين بل من وراء ظهرهم، وأغلب الظنّ أنَّ مشاركتهم تَقْتصر على سماع «النصائح.»

إنَّ هذا النضج السياسيّ الأفريقيّ، مقارنةً بالتخلُّف السياسيّ العربيّ، يوازي المقارنةَ نفسَها بين المثقفين الأفارقة والمثقفين

العرب. ذلك أنّ معظم المثقفين الأفارقة، وعلى اختلاف تيّاراتهم وحساسيّتهم ومشاربهم، تجاوزوا مرحلةَ الوعظ والإرشاد والدعوات، وتجاوزوا أيضًا مرحلةَ المديح والهجاء والرجم والتصفيق، وأصبحوا يتحمّلون مسؤولياتهم ويدافعون عن مصلحة بلادهم وشعوبهم في قلب المؤسّسات العالميّة التي باتوا يَفْهمون آليّاتها الداخليّة وطبيعةَ تناقضاتها من الداخل ويتحمّلون مسؤوليّاتهم في ذلك عبر سعيهم إلى تطوير مؤسّساتهم وتوفير الشروط الماديّة لارتقاء مجتمعاتهم. إنّ هؤلاء المثقفين هم الذين يَدْفعون حكّامهم إلى إلغاء الديون، وتطويرِ منظمة الوحدة الأفريقيّة، وإنشاءِ عملةٍ أفريقيّة موحّدة، وتوسيعِ السوق والإنتاج، ومشاركةِ طاقات المجتمع في مكافحة التجزئة والتخلُّف والتبعيّة، لأنّ أيّ دعوة إلى الديموقراطيّة السياسيّة دون إرساء هذه الشروط الماديّة تظلّ في أحسن الأحوال وعظًا احتفاليًا وطقوسًا غرائبيّة.

عندما أحسّ العربُ بوجودهم في الماضي البعيد توجّهوا إلى أفريقيا قبل الاتصال بالغرب عبر الأندلس وصقلية، وتوغّلوا في دواخل الأرض الأفريقيّة لإنشاء الممالك الأفريقيّة الإسلاميّة. ومازال معظمُ الأفارقة يَذْكرون فَضْل خلافة تومبوكتو وخلافةِ سوكوتو، ويتفاخرون بالتراث العربيّ ـ الإسلاميّ في أفريقيا على الرُّغم أنّه لم يَكُنْ دائمًا ناصعًا.

وهذا التراث هو الذي دَفَعَ الأفارقةَ إلى مساندة العرب حين حاولوا الدفاع عن بعض حقوقهم في قناة السويس والسدّ العالي. كما ساندوهم في دول عدم الانحياز ومجابهة الأحلاف الاستعماريّة، ثم بعدها بقطع العلاقات الدبلوماسيّة مع إسرائيل ومقاطعتها سياسيًا واقتصاديًا. إنّ الأفريقانيّة، إذن، هي الجناحُ الآخر للعروبة... هذا إذا أرادتْ بلادُ العرب استخدامَ أجنحتها في التحليق.

نِيس

مصادر أرقام الآداب (ص ٤٤)

إعداد: ك.ش.

1) Post d'Expansion Economique de Beyrouth, http://www.dree.org.lb.
2, 3) **Guardian**, "Holding Back the Tide," July 28, 2000.
4) **The Economist**, "French Blows its Horn," Nov. 20, 1997.
5) **Guardian**, "Tears Without French," Sept. 11, 2000.
6) Assemblée Nationale de France, Sept. 21, 2000.
7) **Encyclopedia Britannica**.
8, 9) Ethonologue, http://www.ethnologue.com.
10) Assemblée, op. cit.
11) Ministry of Foreign Affairs, "Profile of France," http://www.info-france-usa.org; Martine Boulard, **Le Monde Diplomatique**, June, 2001.
12) Adele King, "Perspectives on World Literature," in **World Literature Today**, Spring, 1998.
13) Unesco, http://www.unescostat.unesco.org.
14, 15) "Quels marchés francophones pour les entrepreneurs?" Haut Conseil de la Francophonie, http://www.hcfrancophonie.org.
16) Ecran Noir, http://www.ecrannoir.com.
17, 18, 19) Commission for Cultural Affairs, Report to the French Senate #52, Oct. 25, 2000.
20) Pascal Monin, Bureau Moyen-Orient, http://www.lb.refer.org.
21) **Libération**, "Au Liban, le français reste à la page," Nov. 9, 2001.
22) **L'Orient-le Jour**, Août 7, 2001.
23) **Le Monde**, Sept. 20, 2001.
24, 25) Unesco Yearbook, http://www.unescostat.unesco.org.
27, 28) The Ministry of Foreign Affairs, www.france.diplomatie.fr/france/fr/politiq.